تختفُ لحسن التربة وثروتها بالموادّ المخصبة المغذية ولما يُلقى عليها من السماد . وهناك قطعان عديدة من الماعز ترعى الاراضي في فصل الصيف على اختلاف الادوار فيُغني سوادها الارض ويخصبها

ودونك طرائق اخرى يستعملها البعض فيزرعون في السنة الاولى البقول كالحمّص والكرسنّة والترمس . وفي الثانية يزرعون الحنطة ويلحقونها في الثالثة بشعير الخريف . وغيرهم يدعون الارض بائرة في سنةٍ مع عزقها في فصل الخريف . وربّما فلحوها ثلاث مرّات وهي طريقة فُضلى . وفي السنة الثانية يزرعون الحنطة وفي الثالثة الشعير

وهاتان الطريقتان الاخريان ليستا بمستكرهتين نسبةً الى ما تصيبهُ الارض من السماد الوقتي وذلك ممّا يخفّف مضارّ زرعين متواليين من البذور في البقعة الواحدة . ولو ابدل اهل الفلاحة بذر السنة الثالثة بزرع من البقول لأصابوا المرمى وزكت المزارع كما يشاؤون . والله الهادي الى الصواب

عَنقاء مُغرِب

لحضرة الاخ انستاس ماري دي سنت ايلي الكرملي الحافي

حدث لي حادث أرويهِ لقرّاء المشرق لغايتَين : الاولى تفكهةً لهم والثانية ابداء رأيهم في هذه المسئلة . وهي : في سنة ١٨٩٦ فوّضني رئيسي بالذهاب الى البصرة قضاء لأمرٍ يتعلّق بشؤون رسالتنا فيها . وفي ذات يومٍ بينما كنتُ راكباً زورقاً مع احد ادباء المسلمين البصريّين رأيتُ طائراً غريباً الحدر على شاطئ النهر على قربٍ منّا . فاممتُ النظر وتفرّستُ فيهِ حتى انطبعت صورتهُ في مخيلتي وهي لا تبرح منها الى اليوم . ثمّ طار وغطس في النهر وظهر على بُعد ثلاثمائة متر . فلمّا استغربتهُ قلت لصاحبي : ما هذا الطائر وما اسمهُ قال : هذه عُنقاء مُغرب . وما لفظ الكلمة إلّا واستُغربتُ . فقال لي : وما الذي يضحكك من كلامي ؟ قلت لهُ : قولك : هذه عنقاء مغرب . أفتظنّني غِرًّا حتّى تسرد عليَّ هذه الرطازات وتنفق عليَّ بضائع هذه الخرعبلات بينما أعلم انّ جميع العلماء والمؤلّفين متّفقون على رأيٍ واحدٍ بعدم وجود هذا الطائر أفلستَ من ابناء العرب او لم تسمع ما قال الشاعر :

الغُول والخِلّ والعنقاء ثالثةٌ اسماء اشياء لم توجد ولم تكُن

قال اني لا اجهل الامر ومع ذلك فاني اوكد لك انها العنقاء لا على ما وصفها بعض العرب حتى اخرجوها مُخرَج الخرافات وتزءوا في قوس حقيقتها حتى قطعوها بعد ان ضاق بها المِذرَع بل هي الطائر الذي وصفهُ بعض من يروي الامور عن ثقةٍ وخبرة وعمَّا يحقق بنفسهِ لا عمَّا يَسمع من غيرهِ. وبينما هبَّ يندفع في الكلام ويتدفَّق فيهِ كانهُ الوَدْق من الرُّكام اخذتُ انصتُ اليهِ راعيًا لِمَا يَنسبتُ لي وانا عُنُقٌ اليهِ. ثم قال: انما عُني هذا الطائر باسم العنقاء اطول عنقهِ. وهو عمَّا تفرَّد بهِ عن سائر حيوانات الارض وأطيارها نسبةً الى جسمهِ. ووصف بالمُغرب او المُغربة لانَّ هذا الطائر اذا حلَّق في السماء يبلغ علوًّا شاهقًا حتى يَغرُب عن الابصار. ولمَّا يغوص في الماء يغيب فيهِ زمانًا طويلًا حتى لا يكاد يصدَّق عاقل بطول زمان غيابهِ لو لم يرَهُ. قلت لهُ: وهل هذا الطائر كثير المِثل هنا قال لي: كلَّا. بل هو نادر الوجود لا بل وجودهُ اليوم هنا من غريب الاتفاق والصُدفة. قلتُ: وهل يأتي كل سنةٍ. قال: لا لأنَّ هذه البلاد ليست وطنهُ فهو يأتينا من بلادٍ نجهلها لكنهُ يبقيهُ في البحر احيانًا فيقع هنا تَيِّبًا مَنهوكًا. قلتُ: وكم من مرَّةٍ رأيتهُ في حياتك (وكان عمرهُ نحوًا من ٣٥ سنة). قال: مرَّةً واحدةً. قلت: وكيف لم تَنَسَهُ. قال: وكيف انسى امرًا فعل في نفسي كلَّ الفعل. ثم قال: ولِمَ هذه الاسئلة التي لا فائدة فيها. فها إني آخذك الآن الى مَنزلي وأُطلعك على كتاب يتطرَّق وصفهُ لهذا الطائر على ما رأيناهُ لكن اسألك ان تتذكَّر بهذه الايام وهي: انهُ حسن الخَلق والخُلق. طويل العُنق. عندما يسبح تقوم على رأسهِ جُمَّة كانها جُنَّة. ويُدلِّي من اسفل الحنك بعَرَض اللون (شعرة السيف). شبيهًا كأنهُ العُثنون. وفي ريشهِ من اختلاف الألوان. ما يُذهل كل انسان. أتحقَّقت كل ذلك قلتُ لهُ: نعم وحقَّقتها احسن تحقيق. لكني ارى في كلامك تكلُّفًا يحول دون السرعة في التصديق

ثمَّ اخذني الى منزلهِ وفتح امامي كتاب حياة الحيوان وقرأ عليَّ ما يأتي نصهُ بحرفهِ الواحد: «قال ابن خلكان ورأيت في تاريخ احمد بن عبدالله بن احمد الغرناطي تزيل مصر ان العزيز ابن بَزار بن المُعزّ صاحب مصر اجتمع عندهُ من غرائب الحيوان ما لم يجتمع عند غيرهِ فمن ذلك العنقاء وهو طائر جاءهُ من صعيد مصر في طول البَلَشون لكنهُ اعظم جسمًا منهُ لهُ لحية وعلى رأسهِ وقاية وفيهِ عدَّة ألوان ومُشابهة من طيور كثيرة» (اه). فلمَّا قرأ عليَّ ذلك لم أعُدْ أجيبهُ ببنت شفة. لكني بقيت على فكري حاسبًا كلَّ ما رأيتهُ من غريب الاتفاق ليس إلَّا

فلما عدت الى بغداد اخذتُ افتش في كتُب الفرنج عن الطائر الذي رأيتهُ. فاخذني كلّ التعجب حينما وقعت اعيني على صورته كانها أُخذت بالتصوير الشمسيّ. وبلغ التعجب مني أوْجَهُ حينما رأيت اسمهُ يوافق اللفظ العربيّ. فقرأتُ وصفهُ فاذا هو وصف الطائر الذي كنتُ رأيتهُ في البصرة. ومذ الحين اخذني الشكّ في صحة كلام رفيقي البصريّ وهو الى اليوم فيَّ لا يتجاوز الشكّ إذ قلتُ في نفسي: من المحقَّق ان العرب قد بالغوا في وصف بعض الحيوانات والطيور حتّى اخرجوها عن التصديق ولعلَّ حظّ العنقاء من حظّ هذه الحيوانات وحظّ هذه الطيور

امّا ما قرأتهُ في كتُب الفرنج فهو ما يأتي اذكرهُ بحرفهِ المعرَّب إتمامًا للفائدة وايقانًا على حقائق الامور. قال احد كتَبَتهم في هذا الموضوع: «العَنقا» (Anhinga Levaillant) (Plotus Levaillant) تمتازا بدقّة عنقها وطوله الفاحش ورأسها اسطوانيّ الشكل ومنقارها مستقيم رقيق محدّد وقامتها لا تتجاوز قامة البطّة كبرًا ولون منقارها اصفر واعلى رأسها وخلف رقبتها احمر آجُرّيّ وعليهِ حاشيةٌ سوداء تنزل الى الكتفين وجبهتُها وعارضاها وجانبا عُنقها ابيض ناصع وبَحْرُها ومقدَّم عنقها اصفر أكمد بلون المُغرة وصدرها واسفل جسمها أسود قاتم بَريقهُ الى الخُضرة ولونُ ظهرها وريش جَناحَيها الصغير أفحَم ووسط كل ريشةٍ أصدأ فاتح وبذنبها اثنتا عشرة ريشة متوتّرة طويلة لا تُناسب تقاطيع جسمها. ولمّا تغوص في الماء او تتوارى بين حشيش الشواطئ تُناسب عُنقها الطويل فيتموّج ويتمعّج كأنهُ حيّة حتى ان الناظر اليها يأخذهُ الفزع والجزع

«وتسكن العَنقاء البلاد الحارّة من شطرَي كُرة الارض وتأوي تارةً الى المياه العذبة وطورًا الى الفيافي والقفار وطعامها الدود والحيوانات الرخوة وصغار السمك وتنام على الاشجار وتعشش على أعلى الأفنان والأغصان وتطير الى عُلوّ شاهق وبسرعة غريبة وتسبح بخفّةٍ عجيبة. وهي كثيرة الحذر اذا سمعت أدنى صوتٍ انغطّت في الماء ولا تظهر إلّا على بُعدٍ شاسع لتستنشق الهواء ثم تغرب ثانيةً وصيدها صعب للغاية. ولا تُفاجأ لا على الماء ولا

---

١) ان الافرنج يبدلون العين لعدم وجودها عندهم بحرف الهاء وهو اقرب الاحرف الفرنجية الى الحرف العربي من سائر الحروف كما قالوا (Alhidad, Mahonne) في الماعون والضادة. ويقع عندهم ابدال اللام بالنون في وسط الكلمة كما قالوا (Gengéli) في جلجلان فضلًا عن انهُ يقع مثل هذا الابدال نفسهُ في اللغة العربية وامثال ذلك كثيرة عند اصحاب اللغتين

على الغبراء اذ تكمن بين القصب والأباءة». انتهى تعريباً عن كتاب (Encyclopédie de l'Enfance, N° 108)

فمن قرأ هذا الوصف وتدبّر بما نقلناهُ ورأيناهُ يتعجب من المطابقة الموجودة في الكلامين. غير ان ما رأيتهُ ونقلتهُ هنا عن الفرنج لا ينطبق كل الانطباق على ما ذكرهُ الدميري نقلاً عن ابن خلكان: فالعنقاء اعظم جسماً من الباشون بقليل لكنها ليست بطولهِ والجثة لا تظهر الّا عند السباحة حينما تَرْبَدّ والظاهر من كلام ابن خلكان ان الرقبة التي على رأسها تُرى دائماً. وكذلك القول في العشون. فهو شيء يكاد لا يُذكر تُدلّيهِ عند السباحة ايضاً. امّا ما وصفهُ بهِ الفرنج فينطبق كل الانطباق على ما رأيت بعيني وسمعتُ من البصريّ. وعلى كلٍّ فان الاسم الفرنجي رسمّاهُ يصدق كل الصدق في هذه الحالة ولعلّ الفرنج اخذوا هذه التسمية عن عرب هذه النواحي اذ لا معنى لهُ في لغتهم ثم لعلّ العرب المحدثين حوّلوا معنى اللفظ الاصليّ الى معنًى آخر يصدق عليهِ بعض هذه التسمية. وهذا عندي اقرب الى الصواب والله اعلم

هذا واختم كلامي راجياً من اولي النظر والنقد ان يتحفونا بشيء مما يبدو لهم في هذا الصدد تمحيصاً للحق ونوراً للباحثين والسلام على من طلب الهُدى واتّبعهُ

جواب المشرق

اذا ما قرأنا في تآليف القدماء شيئاً عن امور طبيعيّة تدهش عقلنا وتظهر انها مباينة لما نعهدهُ الآن او لم يبقَ منها في ايّامنا اثر يلزم ان نتروّى في حكمنا ولا نجزم لاوّل وهلة انّ الخبر عارٍ عن الصحّة ما لم يصرّح الحق بالبراهين البيّنة كما انهُ لا يجب تصديق الامر اذا لم يقترن بالأدلّة. فانّ كثيرًا من الدبّابات والطيور عاشت في سالف الزمن على وجه ارضنا ولا وجود لها الآن. وقد اكتشف العلماء على آثار حيوانات عظيمة الاجسام دثرت وبادت من عالم الكون ومحفوظة هياكلها او بعض اجزائها في قاعات متاحف الشعوب المتمدّنة. وهي الشاهد على ما كان في ارضنا وجوّنا من الحيوانات الجسيمة مثل المأمُوث المحفوظ هيكلهُ في متحف بطرسبرج وكان يبلغ علوّه ستة امتار والحرباء الجنّحة (Pterodactylus) والبليسيوسوروس وكان يبلغ طولهُ عشرة امتار

ولا ريب ان في ما اوردهُ كتبة العرب عن بعض الطيور — سواء كان في تواريخهم او في

الحكايات المصطنعة مبالغةً لكنهُ ليس برمَّته محض اختلاق فاذا ما جرَّدناهُ من الغلو المفرط وقفنا على الحقيقة

ورأينا في عنقاء مغرب هو ان هذا اللفظ أطلق اوَّلًا على طائر حقيقي عظيم الجثمان كان يعيش في الجهات الحارَّة القريبة من خطّ الاستواء في جزائر البحار التي بين الهند والصين ثم اخذ التجار من العرب المسافرون الى تلك البحار والاراضين يخبرون عنهُ عند عودتهم الى اوطانهم فيغالون في عظمه وقوته ويبالغون في وصفه حتى اخرجوهُ عن حدّ التصديق . فكانت نتيجة هذه الاقاصيص ان اسم العنقاء اصبح عند العقلاء كناية عن طائر خرافي لا وجود لهُ اصلًا

امَّا العامَّة فكانوا لا يتردَّدون في قبول ما يُقال عنهُ من الخرَعبلات مصدّقين ذلك دون رويَّة ولا تثبُّت ولذا ننظر ان المخبرين عن العنقاء والكاتبين في شانهـا في طرفَيْ نقيض . فهذا الدميري يصفها بما يكاد يخرجها عن باب الممكن فيقول ان « بيضها كالجبال» وان « عند طيرانها يُسمع لاجنحتها دويّ كدويّ الرعد القاصف » الى غير ذلك من الاوصاف التي تضحك الثكلى وتحمل ذوي الذوق السليم يزُرُّون الأس . امَّا المسعودي الذي سافر في بحار الهند وحلّ في جزائرها وكان ذكي العقل سديد الرأي غزير المعرفة فانهُ ينفي وجود العنقاء فيقول « والناس يذكرون عنقاء مغرب ويوردون العنقاء في الحمأمات وغيرها ولم اجد احدًا في هذه الممالك ممَّن شاهدتُهُ او نمى اليَّ خبرهُ ذكر انهُ رآها ولست ادري كيف ذلك ولعلَّهُ اسم لا مسمَّى لهُ (١) » . وقال ايضًا « وانما ذلك من هوس العامَّة واخلاطها كما وقع لهم في خبر عنقاء مغرب . . . ونحن لم نُخِلْ وجود الناس والعنقاء وغير ذلك ممَّا اتَّصل بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر في العالم من طريق العقل وان ذلك غير ممتنع في القدرة لكن أحلنا ذلك لان الخبر القاطع للعذر لم يرد بوجود ذلك في العالم وهذا باب داخل في حيّز الممكن الجائز خارجٌ عن باب الممتنع والواجب (٢) » . امَّا معظم ما كتبهُ الفرنج قديمًا عن عنقاء مغرب ويسمّونها griffon (٣) فمأخوذ عن اخبار العرب ولا عبرة به

---

١) في كتابه مروج الذهب الصفحة ٢٩ من المجلَّد الثالث . طبعة باريس

٢) المجلَّد الرابع الصفحة ١٥

٣) هذه اللفظة يونانية الاصل (غريس غريبوس γρυψ γρυπος) وتعني طائرًا من الجوارح هو العقاب . ولمَّا اتَّصل بالفرنج وصف العنقاء الخرافية مع جهل اسمها اطلقوا عليها اسم العُقاب griffon

ومن تناقض الآراء في العنقاء واختلاف المؤرخين والعلماء في شأنها نتج ان عامة الناس لدى مشاهدتهم طائرًا نادرًا غريبًا في الشكل والقدر اطلقوا عليه اسم العنقاء وان لم يكن بها. وهكذا هو الامر فيما نرى في الطائر الذي يتكلم عنهُ حضرة المراسل. لانهُ يوجد بون عظيم بين العنقاء وطائر لا يتجاوز جسمهُ كبر البطّة فاذا نفينا ما لا يُصدّق عنها يستنتج من كلام العرب في شأنها انها كانت اكبر بكثير مما نتظرهُ الآن

ولعلّهم سمّوا بعض الطيور بالعنقاء لطول عنقها كما ذكر ذلك الدميري حيث قال « وسمّيت العنقاء لطول عنقها »

ولنا برهان على ما ابديناه من الرأي بشأن العنقاء ما كُتب في طير الرخّ والشيء بالشيء يُذكر

فقد وصف ابن بطوطة طير الرخّ بما يبعدهُ عن الواقع ولا يحتمل تصديقهُ. على انّ وصفهُ لا يخلو من الحقيقة ويثبت على الاقلّ انهُ كان عظيمًا جدًّا بما لا مثيل لهُ الآن. قال عند ذكر رجوعهِ من الصين الى الهند (في الصفحة ٣٠٥ من كتاب رحلته المجلد ٣ طبعة باريس). « ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينهُ نحو عشرين ميلًا والريح تحملنا الى صوبهِ فعجب البحريّة وقالوا لسنا بقرب من البرّ ولا نعهد في هذا البحر جبلًا وان اضطرتنا الريح اليهِ هلكنا » الى ان قال: « وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينهُ وبين البحر فعجبنا من ذلك ورأيت البحريّة يبكون ويودّع بعضهم بعضًا فقلت: ما شأنكم. فقالوا: ان الذي تخيّلناهُ جبلًا هو الرخّ وان رآنا اهلكنا. وبينا اذ ذاك وبينهُ اقلّ من عشرة اميال. ثم انّ الله تعالى مَنّ علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبهِ فلم نرَهُ ولا عرفنا حقيقة صورته. وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الى الجاوة ونزلنا الى سُمَطرة ». فاذا جرّدنا هذا الوصف من المبالغة البينة لا يسعنا انكار وجود هذا الطائر المذكور وعظم جسمهِ

وورد ايضًا في حكايات الف ليلة وليلة في قصّة السندباد البحري في سفرتهِ الثانية انّه رأى في جزيرة قبّة كبيرة شاهقة ملساء تامّة لا باب لها فلم يطق الصعود اليها لملاستها. وكانت استدارتها خمسين خطوة وانهُ رأى في الجوّ غيمة كبيرة فتأمّلها واذا هي طير الرخّ الذي يخبر عنهُ البحريّون وتلك القبّة هي بيضتهُ (١. الى غير ذلك من الوصف

١) وفي ما ورد عن هذا الطائر في كتاب الحيوان للدميري مبالغة تفوق ما حكاهُ السندباد البحري

الذي جعل هذه القصة من جملة الحكايات الخرافية . الا ان واضع الحكاية اتخذ وجود طائر كبير في تلك الجزيرة اساساً بنى عليه حكايته فبالغ وغالى واختلق وخرق

فاذا عرّيناها من المبالغة لا مانع من قبول ما استتر تحت رداء الاختلاق اي وجود طائر عظيم الجسم سُمّوه الرخ . خصوصاً اذا اتت اكتشافات العلماء مؤيدة لذلك . فاو ذكرنا في جملتنا انهُ يوجد طائر بيضته ستة اضعاف بيض النعام لكذّبنا السواد الاعظم من القرّاء مع ان الامر مقرّرٌ علمياً . فقد اخبر الجغرافيُّ الشهير الشيخ ركلو في كتابه الحديث « الجغرافية العمومية » ما يكاد يتوهمهُ القاري زائغاً عن الحقيقة . وركلو هذا هو من عداد الرجال الطبيعيين الماديين الذين لا يذعنون الّا لآراء العقل . فلا يمكنا ان ننسب اليه السرعة في تصديق الامور وقبولها عن غير روّية . قال في معرض كلامه عن حيوانات مدغسكار في الصفحة ٨٤ من المجلد ١٤ ما ترجمتهُ حرفياً « قديماً اي منذ نحو مائتين او ثلاثمائة سنة كانت هذه الجزيرة تحتوي على طائر عظيم جداً من عائلة النعام سماه العلماء epyornis. وقد عرفهُ تجار العرب في القرون المتوسطة ووصفوه لمواطنيهم في اسفارهم فاثاروا فيهم الانذهال والعجب ألا وهو طير الرخ او العنقاء griffon(١ الذي يخبر عنهُ مرقو پولو انهُ يقبض ببرائنه على الفيل وينقله الى قمم الجبال . وقد وُجدت بيضةٌ من بيض هذا الطائر وسعها ثمانية ليترات . وعليه فتكون ستة اضعاف بيض النعام . وقد اكتشف ايضاً العلاّمة غراندييه على عظام هذا الطائر » اه

وكثيراً ما سمعنا المرسلين في مدغسكار يذكرون انهم رأوا بيض طائر الرخ بوفرة في الجزيرة المذكورة

وعليه فوجود طيور عظيمة الاجسام في سالف الزمان بما لا نعهده في القرون المتأخرة لأمرٌ مقرّرٌ علمياً . امّا ما اتى به حضرة المرسل من الوصف للطائر الذي شاهده فلا ينطبق على ما يصحُّ نسبته للعنقاء من الكبر . ونرى ان تسميته بعنقاء مغرب انما هو لطول عنقه وغرابته . والله اعلم بالصواب

الاب انطون صالحاني اليسوعي

---

١) لم يفرق الكاتب بين الطائرين لعدم معرفته بالعنقاء